السنة الأولى ماستر التفسير وعلوم القرآن

مادة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية

المحاضرة 3

ومن بين المناهج أيضا

المنهج الفيلولوجي أو ما يسمى بفقه اللغة هو يعنى بدراسة النصوص اللغوية ومحاولة فهمها بالاستعانة بفروع لغوية أخرى.

وقد ظهر هذا المنهج عند المستشرقين وبالذات في ألمانيا، وقد طبقه المستشرق نولدكه، ففي كتابه يقسم السور القرآنية إلى أربعة أقسام: ثلاثة منها في مكة والأخيرة في المدينة وذلك عبر دراسة قام بها في السور القرآنية، ولغة القرآن وأسلوبه، فتوصل إلى خصائص هذه الأقسام: القسم المكي: وهو على فترات:

الفترة الأولى: كلام مفعم بنبرة خطابية، آياته قصيرة، ويظهر فيه السجع الذي أخذه عن الكهان؟؟

الفترة الثانية: الانتقال من الحماس إلى السكينة، فيجنح إلى الإطناب ولا يقنع خصومه بل يخجلهم سبب التكرار.

القسم الثاني: يرى أن الامور الجديدة التي دخلت بعد الهجرة و صارت تعالج في السور، أحدثت اختلافات بالغة مقابل الأسلوب المكي، ويتجنب في صياغتها كل تزيين خطابي، لكن محمدا صلى الله عليه وسلم يبقى ملتزما بالنظم المؤلف من زيادات فائضة، مما يجعله عنصرا أسلوبيا مشوشا.

لو كان نولدكه يقر بالمصدر الغيبي للقرآن لما صدر منه تصوره عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ينتقي بعضا من الآيات ويتلف بعضها الآخر، مثله مثل أي مؤلف أو شاعر يكتب ويشطب ويضيف ويحذف، وأما قوله بأن النبي صلى الله عليه وسلم يقتبس من أساليب الكهان، فقد عرف العرب الكهانة فما استطاعوا الحكم على القرآن بذلك بل لما حاولوا ذلك بهتوا فقال بعضهم ساحر ثم قالوا مجنون، ولم يجدوا بدا من القول مكابرة إنه ساحر، وقد كانوا يقولون عنه الصادق الأمين، وكم خاب أمل الناس في الكهان، بيد أن النبي ما نطق بشي إلا وكان كما قال. ويكفي في ذلك إخباره بقوله تعالى غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وغيرها.

المحاضرة 4

**ومن بين المستشرقين الذين طبقوا المنهج الفيلولوجي المستشرق كريستوف لوكسنبرغ ففي كتابه: قراءة آرامية سريانية للقرآن.**

يقدم الكتاب أطروحةَ ومراجعَ المنهجَ والأمثلة على تطبيقه في ثمانية عشر بابًا. وتغطي الأبواب، من أولها إلى عاشرها، خلفية ومنهج وتطبيق ذلك المنهج على فكِّ الاستغلاق الذي يطوِّق أصل كلمة قرآن ومعناها، تلك الكلمة التي يرى فيها لوكسنبرغ مفتاحًا لفهم النصِّ ككل. أما الأبواب من الحادي عشر إلى الثامن عشر فهي تستخلص من النتائج المتحصَّل عليها في النصف الأول لتناقش حلولاً ممكنة لعدة عبارات إشكالية وَرَدَتْ في النص. وهذه تتضمن مشكلات مفرداتية ونحوية وتركيبية تمثِّل للمبادئ الأساسية المبطِّنة للأغلاط العديدة الناجمة عن نقل القرآن (الأبواب من 11 إلى 14)، كما وتوسيع هذا المنهج للفحص عن المشكلات المولِّدة لسوء فهم متكرِّر للمواد المطروحة في النص (البابان 15 و16). ثم يطبق لوكسنبرغ استنتاجاته في تأويل سورتي الكوثر والعلق. ويتضمن الباب الثامن عشر موجزًا للعمل ككل.

في مدخل كتابه يلخِّص لوكسنبرغ الأهمية الثقافية واللغوية للسريانية المكتوبة في نظر العرب والقرآن. ففي زمن محمد صلى الله عليه وسلم، لم تكن العربية بعدُ لغةً مكتوبة؛ فقد كانت السورية–الآرامية أو السريانية هي لغة التواصل المكتوب في الشرق الأدنى، بدءًا من القرن الثاني للميلاد وحتى القرن السابع. كانت السريانية، وهي لهجة آرامية، لغة مدينة–دولة الرَّها في أعالي الرافدين. وفي حين لم تعد الرَّها كيانًا سياسيًّا صارت لغتُها، وعاء المسيحية والثقافة، منتشرة عبر آسيا لتصل حتى أقاصي مالابار وشرق الصين. وهكذا ظلت السريانية، حتى بزوغ القرآن، هي وسيط التواصل الأوسع ونشر الثقافة عند الآراميين والعرب، والفرس بدرجة أقل. وهي التي أبدعت النتاج الأدبي الأغنى في الشرق الأدنى، بدءًا من القرن الرابع (أفرهاط وأفرام) حتى تم استبدال العربية بها في القرنين السابع والثامن. ومن الأهمية بمكان التأكيد على أن الأدب السرياني–الآرامي، بما هو الرحم الثقافية التي وجدت فيها هذه الثقافة، يكاد يكون مسيحيًّا حصرًا. ويُظهِر جزء من دراسة لوكسنبرغ أن التأثير السرياني على أولئك الذين أوجدوا العربية المكتوبة كان ينتقل عبر وسط مسيحي وأن تأثير هذا الوسط كان حاسمًا.

ثم يقدم لوكسنبرغ اشتقاقًا لكلمة "سرياني"، آتيًا على ورودها بارزة في مظانِّ الأحاديث الشريفة الأولى التي تذكر أن محمدًا كان يحضُّ صحابته على تعلُّم السريانية (والعبرية أيضًا). والأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك لأن تلك الآداب كانت السوابق الأدبية للعربية المكتوبة. وقد وضع لوكسنبرغ دراسته لاختبار صحة الفرضية التالية: بما أن السريانية المكتوبة كانت لغة العرب المكتوبة، وبما أنها كانت تشكل الوعاء الثقافي للشرق الأدنى، مثلها كمثل الآكادية التي سبقتْها أو العربية التي تلتْها، فإن من الأرجح جدًّا أن تكون السريانية قد تركت بعض الأثر على الذين طوَّروا العربية المكتوبة. ويمضي لوكسنبرغ مفترِضًا أن هؤلاء العرب كانوا متنصِّرين ومشاركين في المسيحية.

تنبَّه الدارسون الغربيون، منذ القرن التاسع عشر، إلى تأثير اللغات الأجنبية، ولاسيما اللهجة الآرامية المسماة بالسريانية، على مفردات القرآن. وقد جمع لوكسنبرغ كل ما يمت إلى هذا المنحى من البحث، وصولاً إلى فحص منهجي عن عربية القرآن بغية تأمين حلٍّ شامل لصعوباته النصِّية العديدة. وقد استندتْ النتائج التي استخلصها حول أصل القرآن، وقصة انتقاله من محمد إلى عثمان، والثيمات المضمَّنة فيه، إلى حجج مشتقة من أدلة جُمِعَتْ وفُحِصَ عنها من خلال أدوات مناهج الاشتقاق والقراءة النقدية للنصوص. فلا يستند أيُّ جزء من هذه المنهج على القبول الأعمى للافتراضات الدينية والموروثة، أيًّا كان نوعها، وخاصة منها ما يمت إلى المفسِّرين العرب. فحتى الآن لم يكن المفسِّرون الغربيون النقديون المرموقون "نقديين" بما يكفي في هذا الصدد. ويبرهن لوكسنبرغ، مباشرة أو بشكل غير مباشر من خلال استنتاجاته، أن هذه الثقة لم تكن في محلِّها. من هنا ليس لأية حجة تسعى إلى البرهان على عدم صحة فرضيات لوكسنبرغ أن تفترض أن المفسِّرين العرب فهموا قواعد ومفردات عربية القرآن فهمًا سليمًا.

ثم يقدِّم لوكسنبرغ ما جاء في التراث الإسلامي عن التاريخ المبكر لنقل القرآن. فبحسب ذلك التراث كان الخليفة عثمان بن عفان (644-655 م) هو أول من جمع مدوَّنات ما نطق به محمد في مصحف واحد (570-632 م). فالقرآن هو أول كتاب باللغة العربية اطَّلع عليه الفقهاء. وهذا مهم جدًا لأنه أساس العربية المكتوبة – لغة حضارة وسيطية رفيعة – ولأنه، عند المسلمين، منبع كلِّ تعبير ولاهوت وتشريع ديني، ويُعتَبَر وحي الله إلى محمد. وهو في نظر غير المسلمين نتاج أدبي هام يستحق الدراسة، سواء من منظور تاريخيٍّ أو فقهي لغوي.

وهذا المنظور هو الذي يتَّبعه لوكسنبرغ. فالمفسِّرون الغربيون قد اتَّبعوا التقليد الإسلامي بدلاً من استعمال الأدوات والفنون المرجعية للتحري الفيلولوجي. ويقدِّم لوكسنبرغ عرضًا موجزًا لما تضمَّنتْه المكتشفات من أعمال هامة تتناول فقه اللغة القرآني في الغرب. لقد تنبَّه العلماء بشكل متزايد إلى ما يتضمنه القرآن من مصطلحات أعجمية وإشارات إلى أحداث تاريخية أجنبية وإلى الأصول الآرامية لمعظم هذه المصطلحات والإشارات. غير أن إصرار العلماء الغربيين على اعتماد المقاربة البالية فنيًّا غير العلمية لتفاسيرهم الإسلامية فإن المغزى من مكتشفاتهم كان لا بدَّ أن ينتظر حتى صدور هذه الدراسة.

الباب الثاني من دراسة لوكسنبرغ لا يتخطَّى بكثير مجرد التصريح بأن دراسته مستقلة عن الأبحاث العربية والغربية، تحديدًا لأن منهجه لا يستند إلى شروح المفسِّرين العرب، إنما بالحري إلى الأدوات المفرداتية العربية والسريانية، بالإضافة إلى اللسانيات السامية المقارنة. وكان مصدره الرئيسي بين المفسِّرين العرب هو التفسير الأقدم للقرآن للطبري. لم يكن في حوزة الطبري أيُّ قاموس يستطيع مراجعته، فكان مضطرًّا إلى الاتكال على الأثر الشفوي وعلى مفسِّرين أقرب إلى معاصرة محمد ممَّن حافظت مؤلفاتُهم المفقودة جزئيًّا على كلامه. فكان اللسان، ذلك القاموس الأوسع للغة العربية، والترجمات والتفاسير الغربية لبِلْ وبلاشير وباريت، والقاموسان السريانيان لباين سميث وبروكلمان ومعجم مَنَّا الكلداني–العربي، هي الأعمال المرجعية الأولية الأخرى.

ونقع على استعمال هذه المواد موضوعًا في خدمة المنهج في الباب الثالث، حيث يصرِّح لوكسنبرغ أن الهدف الرئيسي من الدراسة هو توضيح العبارات التي لم تتَّضح للمفسِّرين الغربيين الثلاثة. وقد قاده اكتشاف وجود الكثير من المفردات الآرامية الأصل إلى الرجوع إليها في تلك المقاطع التي لم تكن من "المتشابهات" بحسب افتراض المفسِّرين الغربيين. وكان الفحص عن هذه المقاطع مبرَّرًا، خاصةً حين لم تكن تفاسير المفسِّرين العرب (التي اتَّبعها المفسِّرون الغربيون إلى حدٍّ كبير) مطابِقة لسياق الكلام على الإطلاق. فعلى سبيل المثال، لم يكن لدى الطبري أية أدوات معجمية، كما أنه لم يستشهد إلا فيما ندر بأبيات من الشعر العربي الجاهلي تأييدًا لتفسيره عبارة معينة. في مثل هذه الحالات يكون هامش الخطأ واسعًا لأن التحقق من سياق تلك القصائد الجاهلية مرارًا ما يكون صعبًا للغاية. ومع ذلك، كان المفسِّرون الغربيون، في كثير من الأحيان، يقبلون تلك التفاسير دون أيِّ نقاش[[1]](#footnote-1).

ليخلص إلى أن العرب قاموا بإعجام القرآن وفقا لعقليتهم التي ألفت الغزل ووصف الأطلال وغيرها، ففي قوله تعالى و زوجناهم بحور عين قال الأصل و روحناهم بحور عنب، والعرب قاموا بإعجامها لتعكس شغفهم بالغزل؟؟؟

إن الناظر إلى المعاجم السريانية يجدها متأخرة عن المعاجم العربية وبالتالي كيف يعقل أن يؤثر المتأخر في السابق؟

ثم إن الحروف المعجمة في اللغة العربية أربعة عشر حرفا. وهي ب، ت، ث، ج، خ، ذ، ز، ش، ض، ظ، غ، ف، ق، ن. أما في السريانية فعدد الحروف المعجمة لا يتجاز حرفا أو اثنين؟؟ بالتالي كيف يعقل أن تؤثر لغة حروفها المعجمة قليلة جدا في لغة أخرى تتوفر على أربعة عشر حرفا معجما.

1. للتوسع ينظر: كريستوف لكسنبورغ، ترجمة أكرم أنطاكي و آخرون، عن موقع http://m.ahwer.org/a.asp [↑](#footnote-ref-1)